مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية
المجلد ٤ - العدد ٣ من ١١ إلى ١٥

ذي القعدة ١٤٠١هـ
ايلول ١٩٨١م

قراءة في الفكر اللغوي للعلامة
عبد الرحمن بن خلدون المغربي ،
صاحب المقدمة .

د . نجيب غزاوي
كلية الآداب

يخصص ابن خلدون ، في المقدمة ، حوالي ثلاثة عشر صفحة للغة ودراستها . وسنحاول في هذا البحث ابراز أهم القضايا اللغوية التي أشار إليها ابن خلدون على ضوء البحث اللغوي الحديث :

- أهمية النحو المركزية وعلاقة المعنى به .
- الوظيفة الأساسية للغة هي الاتصال بين البشر .
- الحرية النحوية والتطور من اللغات المعربة إلى اللغات غير المعربة .
- اللغة ملكه ، والملكة تعنى القدرة على التركيب .
- المحيط أساس في قلم اللغة .
- إدراك المعنى يتم من خلال تواتر الاستعمال .
- امتلاك اللغة غير معرفة النحو .

يعتبر ابن خلدون أن أركان اللسان العربي أربعة : اللغة والنحو والبيان والأدب . ويعطى النحو الأهمية الأساسية والمركزية، فهو يأتي عنده في المرتبة الأولى نظراً لأهميته في فهم المعنى . يقول ابن خلدون : إذ به (أي النحو) يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول به والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة !! [١] ويشارك علماء اللغة في الوقت الحاضر ، والتوليديون التحويليون بشكل خاص ، ابن خلدون هذا الموقف من النحو ، فهم يؤكدون على أهميته المركزية في الدراسات اللغوية باعتبار التركيب في اللغة المادة الوحيدة المحسوسة القابلة للتحليل الموضوعي . كما أنهم يربطون المعنى بالتركيب النحوي ويفسرون كل تغير في المعنى ببنيه نحوية محددة . فعبارة

قرأت نقد طه حسين

غامضة المعنى فهي تحتمل تفسيرين ندركهما من خلال افتراض وجود بنيتين نحويتين مختلفتين نجمت عنهما هذه البنية :

نَقَدَ طه حسين أحدهم .

نَقَدَ أحدهم طه حسين .

فهذه حالة توضح ارتباط المعنى بالتركيب النحوي الذي أشار إليه ابن خلدون حين قال «إذ به يتبين . . . . فيعرف الفاعل من المفعول . . .» ففي الحالة الاولى «طه حسين» فاعل بينما هو في الحالة الثانية مفعول به .

ويؤكد ابن خلدون على أن الوظيفة الأساسية للغة هي الاتصال حين يقول : «اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده» [٢] . وهو يشير بذلك إلى فكرة أساسية طورتها المدرسة الوظيفية الحديثة حين رأت أن للغة وظائف عديدة : الوظيفة التعبيرية ، الشعرية ، اللعبية ، التفكيرية . . . [٣] غير أن أهم هذه الوظائف وأساسها هو وظيفة الاتصال فاللغة أولاً وقبل كل شيء وسيلة اتصال بين البشر والوظائف الاخرى انما تتحقق من خلال هذه الوظيفة .

وفيما يتعلق بعلم البيان أو الدلالة ، بالمعنى الدارج للكلمة، فهو يفصله عن اللغة وعلم العربية ويحدده على أنه علم الدلالة والمعنى ، إذ يقول : «وهو علم حادث في المله بعد علم العربية واللغة ، وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد به الدلالة

---

(١) ص ٤٨٤ من «المقدمة» ـ منشورات كتاب التحرير . . . القاهرة (١٣٨٦ ـ ١٩٦٦)

(٢) المصدر نفسه (ص ٤٨٤)

(٣) عدد جاكوبسون ست وظائف للغة . أنظر R. JAKOBSON, ESSAIS DE LINGUISTTQUE GENERALE. (Ed. MINUIT)

عليه من المعاني» [١] . ويعود ابن خلدون ليؤكد هنا على أن المعنى أساسه النحو أي التركيب وبنيه الجملة والكلمة ، ويشير إلى أن المتكلم يجد تحت تصرفه مفردات وحركات اعرابية وصيغ كلمات ، قائلاً : «وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها أفاده السامع من كلامه هي : إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض ، والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف وأما تمييز المسندات من المسند إليه والأزمنة، ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات ، وهذه كلها هي صناعة النحو» [٢] .

فالدلالة إذن هي المفردات وما يحكمها من علاقات وروابط وهي أيضاً أشكال الكلمات وتبدلها بالاعراب وهذا كله انما يحكمه النحو وينظمه .

ويبدو أن ابن خلدون يرى بوجود صيغ نحوية أساسية نمطية ، أو أن هناك نظاماً في تتابع الكلمات يتعدل ويتبدل حسب رغبة المتكلم في ابراز هذا الجزء أو ذاك من عبارته انسجاماً مع السياقات والمواقف المختلفة ودون خروج عما تسمح به قواعد اللغة يقول ابن خلدون : «ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجه للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل . وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الافادة ، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ الافادة من كلامه . . . ولكل مقام عندهم مقال يختص به ، بعد كمال الاعراب والابانة . . . ألا ترى أن قولهم «زيد جاءني» مغاير لقولهم «جاءني زيد» من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم. فمن، قال «جاءني زيد» أفاد أن اهتمامه بالمجيء مثل الشخص المسند إليه . ومن قال «زيد جاءني» أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند [٣] .

ويعتبر هذا الأمر من باب الحرية النحوية التي تتيح إمكانية في التعبير وتضيف إلى ما يحدده النحو النمطي من دلالة أخرى . ونشير هنا إلى أن الحرية النحوية ، التي تعني أن تغير مواقع الكلمات لا يغير في وظيفتها وإعرابها ، هي من خصائص اللغات المعربة التي تتحدد وظائف الكلمات فيها بتغير نهاياتها كالعربية واللاتينية واليونانية القديمة . وهذا لا يمنع من ملاحظة أن بعض اللغات غير المعربة ، كالفرنسية مثلاً ، تحتوي بعض حالات الحرية النحوية كما هو الحال بالنسبة لمواقع بعض الظروف وما شابهها [٤] .

---

(١) المصدر نفسه (ص ٤٨٨)

(٢) المصدر نفسه (ص ٤٨٨)

(٣) المصدر نفسه (ص ٤٨٨)

(٤) انظر A. MARTINET, ELEMENTS DE LINGUIS TIQUE GENERALE

يشير ابن خلدون في فصل تحت عنوان «فصل في أن اللغة ملكه صناعية» إلى أن اللغة ملكه ويقصد بالملكه القدرة على التركيب . يقول : «إعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وتصورها بحسب تمام ملكه أو نقصها . وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما بالنظر إلى التراكيب» (١) . وندرك هنا قضية هامة فامتلاك اللغة يعني لدى ابن خلدون امتلاك التراكيب اللغوية أو القدرة على التركيب وليس معرفة المفردات والقواعد فقط . وتعرف الكفاءة اللغوية في علم اللغة الحديث على أنها امتلاك القدرة على التركيب يضاف إليها على الحكم على الجمل أي رفضها أو قبولها لغوياً .

وفيما يتعلق بتعلم اللغة يقول ابن خلدون : «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكه اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم ، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك . ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكه وصفه راسخه ، ويكون كأحدهم» (٢) .

يتعرض ابن خلدون في هذا النص إلى قضية اختلف فيها علماء اللغة المعاصرون حول فطرية اللغة . ففي حين يرى علماء اللغة الاجتماعيون أن اللغة انما تتعلم من المحيط يرى عالم مثل شومسكي أن لدى الانسان استعداداً فطرياً لتعلم اللغة ينميه المحيط . وأن هذا الاستعداد الفطري غير متوفر لدى أكثر القرود ذكاء . يرى ابن خلدون من خلال النص برأي علماء اللغة الاجتماعيين :

«فالمتكلم من العرب . . . يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم . . . .»

كما يلمس قضية أساسية حين يقول بأن المعنى إنما يتعلم ويدرك من خلال تواتر الاستعمال ، من «استعمال المفردات في معانيها» . وتلك قضية ألح عليها علم اللغة الحديث وطرائق التدريس ، فخلق الحوارات والمواقف في الصف لتثبيت المعاني أساس من أسس تعليم اللغات الاجنبية .

يشير ابن خلدون في مجال تطور اللغة إلى قضية هامة ألا وهي أن تطور اللغة يتم من النموذج المعرب إلى النموذج غير المعرب حيث تحدد وظائف الكلام من خلال موقعه في الجملة . يقول ابن خلدون :

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٩١

(٢) المصدر نفسه ص ٤٩٢

«وذلك أننا نجدها (لغة العرب في هذا العهد) في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ، ولم يفقد منها إلاّ دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد». لقد حل إذن موقع الكلمة في الجملة محل علامة الاعراب في تحديد وظيفتها . وذلك قانون عام سارت عليه كل اللغات في تطورها .

ويميز ابن خلدون أخيراً بين امتلاك اللغة أو اللسان وبين معرفة صناعة العربية أي النحو ومعرفة قوانين هذه الملكه ومقاييسها خاصة : «فهو علم بكيفية لا نفس كيفية» [1] . ويلاحظ أن الكثير من النحاة والمهرة في صناعة العربية غير قادر على كتابة سطرين دون خطأ أو لحن باللغة فيما هناك الكثير ممن يحسن هذه الملكة ويجيد النثر والشعر دون أن يحسن اعراب الفاعل أو المفعول ولا المرفوع أو المجرور . . . ويخلص إلى القول بأن تعلم ملكة لغة غير صناعة اللغة أو النحو وأن الأمر الاول مستغنٍ ومستقل تماماً على الأمر الثاني .

---

(١) المصدر نفسه (ص ٤٩٦)